بيان طبيعة الأدلة
في
القرآن الكريم

بيان طبيعة الأدلة

يعتمد القرآن الكريم في منهج الدعوة الاستدلالي على بيان طبيعة الأدلة، لما لتلك القاعدة من آثار قوية إلى جانب غيرها من القواعد.

على أن طبيعة الأدلة يتوقف عليها نجاح الداعي في إقناع المدعو بقضيته التي يدعو إليها، ويدلل على صحتها .. والعقل إذا كان يقتضي الدليل، ويطلب طرح ما عند الغير من دلالات على صحة دعواه فهو لا يطلب أي دليل، وإنما يريد من الأدلة ما يقنعه وما يشبع نهمه من تطلع إلى المعرفة الجادة، وإرواء نظراته النقدية، وتأملاته التحليلية، واتجاهاته الوصفية، وصيغه البنائية وإجابته عما يطفر أمامه من تساؤلات، وما يعِنُّ له من مشكلات، وما يطرأ له من قضايا، وما يواجهه من أزمات.

فصيغ العقول تقتضي أن تكون الأدلة على مستوي راق يتناسب مع طبيعة الإدراك العقلي، ويتناغم مع وسائله، ولو لم تأت الأدلة على هذا النحو ما قنع العقل منها بشى، وربما كانت مظنة الاتهام بالقصور، وعدم الارتقاء إلى مستوى الإقناع، وبالتالي ستقابل بالاستهجان والاستغراب، وربما الإنكار.

ولأن القرآن الكريم منَّزل من عند الله تعالي، ولأن الله تعالى خبير بصنعته، فقد جاء منهج الاستدلال الدعوي في القرآن الكريم، ليراعي من خلال هذه القاعدة طبيعة العقل، ومدى طموحه وطبيعة عمله، وقدراته وطاقاته وإمكاناته ووسائله.

من ثم نجده يطرح للعقل الكثير من الأدلة، ويعلمه صيغ البناء الدلاليِّ الصحيح، وما ينبغي أن يتوفر فيه، وما يجب أن يُنأي عنه من خلال طبيعة أدلته، وطبيعة منهجه في بنائها.

ولذا توفرت أدلة منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على معالم متعددة توضح طبيعتها، وتبين قدرتها على الإقناع، وقوتها من حيث "الهدم والبناء"، و "الإثبات والنفي".

وتبدو طبيعة هذه الأدلة من حيث أنها:

١ـ ربانية.
٢ـ محيطة وشاملة
٣ـ بينة.
٤ـ متفقة مع الواقع.
٥ـ منسجمة مع العقل.
٦ـ مؤثرة.
٧ـ قاطعة.
٨ ـ ملزمة.

تأصيل قاعدة بيان طبيعة الأدلة

المبحث الأول

ربانية الأدلة

تعد " **ربانية الأدلة**" واحدة من أبرز طبيعة الأدلة وأهمها على الإطلاق من حيث أنها ربانية المصدر أي إنها من عند الله تعالي، لذا فقد جاءت خبيرة بطبية الإنسان، وقناعات العقول، مراعية لمستويات الإدارك، وعنها تنبثق طبائع الأدلة الأخري.

ولا تخفي ما للأدلة بهذه الطبيعة من أهمية .. فهي تقابَل ـ إن صدق التلقي ـ بالوثوق، لأنها ليست من معطيات العقول وقرائحها، وإنما من نفحات الوحي الإلهي المعصوم ومقتضياته.. والمتسمة بكمال الإدراك، ودقة التناول، وعمق الدلالة .. المنزهة عن التفاوت والسطحية والقصور، وهذه من لوازم العقل.

ودليل هذا:

١ ـ قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [(١)].

٢ ـ وقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(٢)].

٣ـ وقوله ﷻ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [(٣)].

---

(١)سورة فصلت (٤١، ٤٢).

(٢)سورة الحديد (٩).

(٣)سورة الحجر (٩).

فثمة آيات كثيرة إلى جانب هاتين الآيتين تبينان طبيعة الأدلة الربانية، فالله تعالي هو منزل الكتاب على نحو من الإحكام، وأودع فيه حكمته تعالى، وحفظه من التبديل والتغيير والتحريف، وهذا مدلول قول الله تعالي ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ .

المبحث الثاني

وضوح الأدلة

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أنها فى مجملها بينة الدلالة، واضحة المعاني، وبهذا الوضوح والبيان ينتفي اللبس والخلط، ويزول الإبهام، والغموض، ويترتب على ذلك رسوخ الدلالة، ورسوخ القضايا "مثار الاستدلال" في الذهن، ويتلاشى على أثرها الحيرة والتردد والتيه الذي ينشأ عن عدم وضوح الدلالة وإبهامها.

وذلك أن الأدلة ينبغى أن تكون هادية، ولا يتحقق هذا مع غموض وخفاء، فكيف يهتدي المدعو بشئ لا يفقه طبيعته، ولا يعرف مدلوله؟!، بل كيف يعتنقه ويؤمن به ويصدقه؟!!

ولعل هذا ما أشار إليه العلامة السمر قندي في تعريفه "البينة" بقوله: (هي في اللغة مأخوذة من البيان، وهو الظهور والإظهار ومن البينونة، وهو الفصل: سمي المعنى الظاهر الفاصل بين الحق والباطل بيِّنة. وهي في الأصل اسم لما يوجب العلم قطعًا.

ثم في العرف صارت مستعملة في الأمرين، ولهذا سميت الشهادة في باب القضاء بينة، وهي ليست بقاطعة[1].

فالأدلة بينة، لأنها تفصل بين الحق والباطل، وتظهر الأول على الثاني، وتبرز المعاني وتوضحها، وهي موجبة للعلم قطعًا.

---

(١) ميزان الأصول في نتائج العقول المختصر للإمام السمرقندي، تحقيق: د/ محمد زكي عبد البر (ص ٧٣) ط (٢) إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر ١٤١٨هـ/ ١٩٧٨م.

من ثم ندرك قيمة تركيز منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على بيان طبيعة الأدلة من حيث بيانها.

ومن أدلة ذلك في القرآن الكريم ما يلي:

١ـ قوله ﴿۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

٢ـ وقوله تعالى﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

٣ـ وقوله تعالى ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

٤ـ وقوله تعالى ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[٤].

٥ـ وقوله تعالى﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[٥].

٦ـ وقوله تعالى مخبرًا عما دار بين نبي الله موسى عليه السلام وفرعون من مجادلة: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[٦].

٧ـ وقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٧].

---

(١) سورة المجادلة (٥).
(٢) سورة النور (٣٤).
(٣) سورة النور (٤٦).
(٤) سورة يوسف (١).
(٥) سورة الحجر (١).
(٦) سورة الشعراء (٩).
(٧)سورة الحديد(٩).

دلالات التأصيل:

[١] إن الآيات الكريمة جاءت لتبين وضوح دلالات نصوصها وأنه لا عذر لمعتذر بعد ترك هذه الدلالات، وتجاهل وضوح دلالاتها وبيانها لقضايا الدعوة، وهذا مدولول قول الله تعالي "وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين".

[٢] تبين الآيات الكريمة أن وضوح دلالات نصوصها جاء لهداية الناس إلى الحق، وعلى نحو يتحقق معه الانتفاع بما فيها من مواعظ وعبر وآيات، ومن علة بيانها أنها جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وهذا مدلول قوله تعالي " هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور "وقوله تعالي " لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم".

[٣] إن إنكار الأدلة بعد تبين وضوح مدلولاتها وقطعية ثبوتها لا يعدو كونه حماقة أو خبل أو خبط، ومدلول هذا آيات سورة الشعراء التي ذكرت ما دار بين فرعون ونبي الله موسي ﷺ من مجادلات، وإصرار فرعون على إنكار الأدلة بعد وضوح دلالاتها على صدق نبي الله موسي ﷺ في دعواه النبوة وضوحًا دحضت على أثره حجج فرعون، وتبين تهافت فكره، وضحالة عقله، وفساد اعتقاداته في تأليه ذاته، أو ادعائه الألوهية.

المبحث الثالث

انفاق الأدلة مع الواقع

من طبيعة الأدلة الدعوية في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم أنها تأتي متفقة مع الواقع، غير نابية عنه أو مجافية له، أو متناقضة معه.

وكيف لا وهي تحثنا على فقه الواقع وتأمله وتدبره وتسيير النظر في آياته، واستخراج كوامن أسراره.

وكيف لا وقد استنطق القرآن الكريم الواقع بها.. فهي مأخوذة مما نراه واقعًا ونشاهده ونلمس آثاره في الكون، ومما كان واقعًا من حياة السابقين آن نزول القرآن الكريم أو كان واقعًا من إخبار عن الأمم السابقة، وقد وجهنا القرآن الكريم إلى أن نتلمس آثارهم، ونتقصى خبرهم، ليبين لنا أنه ينصب الأدلة من واقع لا يمكن إنكاره أو تجاهله أو إغفاله، فليس أصدق في العقول من دليل ينبثق من واقع أو من مصدر أيقنت صدقة، وجزمت بصحة إنبائه.

فدلالة الواقع دلالة قطعية، لأننا نشاهده ونراه، ولا يمكن أن ننكره، ومن دلالات الواقع استدلال القرآن الكريم بأيات الخلق وتسيير الكون، وإماطة اللثام عن كثير من أسراره، والحديث عن مظاهر حيويته من حركة الشمس والقمر، وحركة الأرض واتساع السماء الذي ما زال يحدث في الكون حتي الآن، والظواهر الكونية كالبرق والرعد والزلازل، مما أثبت العلم يقينيته، وكما ينصب القرآن الكريم الأدلة من خلال الحديث عن الماء والزرع والثمر والحشرات والحيوانات والطيور وما فيها من منافع ومضار، هذا على سبيل المثال لا الحصر، فالقرآن الكريم مُتْرع بهذه الشواهد الدلالية التي تتفق مع الواقع وتنسجم معه.

وهذا ما يفسر به واقعية الأدلة، ولا تعني الواقعية أن الأدلة منحوتة من الواقع بمعنى أنها انبثقت من البيئة بمعزل عن الوحي الإلهي، فهذا ما لا يمكن تصوره، وغاية القول في هذا أن القرآن الكريم لفت الأنظار إلى مظاهر الخلق وقضايا الكون، ليصوغ منها أدلة واقعية لا يمكن إنكارها.

فالقرآن الكريم وحي معصوم، ولم يأت عن طريق الانبثاق البيئي أو التأثير الاجتماعي ..﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1].

تأصيل واقعية الأدلة:

من الأدلة التي تثبت واقعية الأدلة في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ما يلي:

١ـ قول الله ﷻ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾[2].

٢ ـ وقوله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

٣ـ وقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾[4].

٤ـ وقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ

---

(١) سورة فصلت (٤٢).
(٢) سورة الذاريات (٥، ٦).
(٣) سورة لقمان (١٠، ١١).
(٤) سورة فاطر (٤٠).

ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾[1].

٥ ـ وقوله تعالي ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[2].

٦ ـ وقوله تعالي ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾[3].

٧ـ وقوله ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

٨ ـ وقوله تعالي ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[5].

٩ ـ وقوله تعالي ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[6].

---

(١) سورة الملك (٢٨: ٣٠).
(٢) سورة يونس (٦).
(٣) سورة الدخان (٧ :٩).
(٤) سورة الدخان (٣٨، ٣٩).
(٥)سورة القصص (٧١، ٧٢).
(٦)سورة الطور (٣٥، ٣٦).

دلالات التأصيل:

لا يخفى أننا بالتأمل في هذه الآيات الكريمات، وإمعان النظر فيها، وإنعامه بها نستطيع إدراك ما يلي:

١- أحال منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن المدعو إلى واقع لا يمكن تكذيبه، كما لا يمكن إنكاره، فما يوعدون به محقق لا ريب، وهو واقعي، لأنه يتسم بالصدق، وهذا مدلول قوله تعالي" إنما توعدون لصادق".

٢ـ من دلالات الواقع أن الأثر يدل على المؤثر والسير يدل على المسير والبعر يدل على البعير، وعليه فالخلق يدل على الخالق، والصنعة تدل على الصانع، والله تعالي يدل على وجوده ووحدانيته وإلهيته وقادريته، وخلقه وصنعته، وهذا ما دلت عليه الآيات الكريمة، فبعد أن ذكر الله تعالي معالم من خلقه، من حيث خلقه السماء بدون عمد يري في الواقع، وإلقائه الرواسي في الأرض كي لا تميد بالخلق، وبعد أن عدد بعض مظاهر نعمه، وكلها أمور واقعية نراها ونلمسها ونشاهدها، قال تعالي ﴿ **هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ** ﴾؟!

فهل يستطيع مدع ألوهية غير الله أن يأتي من الواقع بدلالات واقعية تقطع بصحة دعواه .. مثلما جاء به القرآن الكريم من دلالات واقعية تؤكد صدق قضايا الدين "ماذا خلقوا من الأرض" ؟! أي أثر لهم، وأي صنعة تدل عليهم؟!

لا شئ !!!

٣ ـ إقامة القرآن الكريم الأدلة من الواقع على قدرة الله تعالي المطلقة في تغيير طبيعة هذا الواقع وتحدي الإتيان بغير مرداه تعالي لتغيير طبيعة ما أراد الله تعالي تغييره.

وهذا مدلول قوله تعالي "قل أرءيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم"، وقوله تعالي "قل أرءيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين " وقوله تعالي" قل أرءيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم

القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء .. " " قل أرءيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ... "؟؟ وتذييل الآيتين "أفلا تبصرون"؟!

وكأن الله تعالي يقول لهم: أفلا تسمعون هذا الإخبار الإلهي وتنظرون واقعيته، ثم أفلا تبصرون هذا الواقع الذي لا يمكن تغييره، وذلك النظام الذي لا يمكن إبطاله، وهذا الاستدلال متفق مع الواقع ومنسجم معه، بل هو جزء منه، وآية من آياته، ومعْلم من معالمه.

المبحث الرابع

انسجام الأدلة مع العقل

من طبيعة الأدلة في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم أنها أدلة معقولة لا يعجز العقل عن إدراكها، ولا يعيا عن فهمها، لأنها تعتمد على إقناعه بما يتفق وطبيعة عمله، بحيث يقنع به العقل ويتلقفه بالقبول، ولا يعارضه أو ينكره.

ذلك أن الأدلة راعت عند نصبها القسمة العقلية المنطقية، ووضعت أمام العقل شارات صدق الدلالة وواقعيتها وعقلانيتها، وقد جاءت لتراعي قدرات العقل الذهنية، وتبصر بطرق إقناعه ومحاجته إن أنكر بفعل الحجب التي تحجبه وتعوقه عن التأمل الصحيح، والنظر السديد، ولا ينكر القضية بعد ثبوتها إلا جاحد أو معاند أو منكر.

ولكي تقوم الحجة على العقل لابد من أن تتفق الأدلة مع مقدماته وتنسجم مع مبادئه، وتتفاعل مع معطياته تفاعلاً يدفع المدعو إلى التسليم بمقتضيات الأدلة ومقررات الدين، الأمر الذي يحقق قدرة الأدلة الدعوية على الإقناع وإمكانيات العقل وقدراته على الاقتناع، ثم الإذعان، ثم الاعتقاد، ثم اليقين.

ولم تطلب الألة الدعوية من العقل أن يوقن أولاً، ثم يفكر، فتلك تنائج قسرية، وإنما أوجبت عليه أن يعمل ملكاته فيما ينصب أمامه من دلالات، وأن يستنتج منها النتائج، ويستنبط منها الأحكام، ومما يحقق هذا الانسجام (أن كل ما يعارض الشرع من العقليات يعلم العقل فساده)[1].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم (١/ ١٩٥)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط (١) ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

وما كان هذا ليتحقق لو أن الأدلة الدعوية جاءت مترفعة على العقل، مجافية له، غير متفقة معه، أو منسجمة مع مدراكه.

ذلك (أن النظر العقلي والمنطقي والإنساني يقتضي أنه لا يمكن أن يوجد أي تناقض أو اضطراب بين معطيات الوحي وقناعات العقل هذا التطابق المنطقي بين العقل والحقائق المطلقة، وما يأتي به الوحي، وهو أخطر مبدأ عرفته نظرية المعرفة ... فكل ما يقرره الوحي لابد أن يكون صادقًا منسجمًا مع الواقع موافقًا له، إذ لا يتصور أن يكون اللهﷻ جاهلاً أو غاشًا أو مضللاً لمخلوقاته، وعليه فإن ما يبينه لهم لا يمكن أن يتعارض مع حقائق الواقع، لأنه ما أنزله إليهم إلا للإرشاد والتعليم والهداية والتوجيه)[1].سواء في ذلك الجوانب العقدية والتشريعية.

(ومن هنا ندرك بعض أبعاد دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما بقوله "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[2] " فبدون معرفة المآلات والعواقب التي تترتب على تنزيل الحكم على الواقع، يغيب الفقه الحقيقي في الدين، ويساء التطبيق، ويُتعسف فيه ويُعبث بالأحكام الشرعية، الأمر الذي يؤدي إلى العنت، وغياب الأهداف والمقاصد التي من أجل تحقيقها جاء الوحي الإلهي)[3].

---

(١)إسلامية المعرفة. المبادئ العامة. خطة العمل . الإنجازات (ص ٩١)، سلسلة إسلامية المعرفة (١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١هـ / ١٩٨١م بتصرف يسير، ومقدمة التفسير لابن تيمية (١٣/ ٣٤٠، ٣٤١) مرجع سابق، دار الحرمين للطباعة، بدون تاريخ. .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس بلفظ: (ضمني رسول الله ﷺ وقال: اللهم علمه الكتاب) (١/ ٢٥) كتاب العلم باب : قول النبي ﷺ (اللهم علمه الكتاب).

وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ: (اللهم فقهه) (٢/ ٣٩٠) كتاب الفضائل، باب: من فضائل عبد الله بن عباس.

وذكر ابن حجر في فتح الباري أن الحميدي ذكره في الجمع أن أبا مسعود ذكره في أطراف الصحيحين بلفظ: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)، وقال الحميدي هذه الزيادة ليست في الصحيحين وذكر ابن حجر أيضا أن هذه الزيادة أخرجها البغوي في معجم الصحابة، فتح الباري (٢/ ٢٩٥) كتاب العلم، باب: قول النبي ﷺ (اللهم علمه الكتاب) دار الغد العربي، ط(١) ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب في الاجتهاد التنزيلي. د/ بشير بن مولود جحيش ص ١٢ سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، العدد (٩٣) المحرم ١٤٢٤هـ . .

ذلك أن أصول الإسلام العقدية والشرعية ومبادئه وأخلاقياته تتفق مع العقل إذا ما تجرد من معوقات الإدراك، وهي منسجمة معه في أطواره وأفكاره الناضجة، ومما يفتح باب الاجتهاد في فهم النصوص، واستنباط الأحكام التي ينضبط بها الواقع[1]، ورد ما لم يرد فيه نص من معطيات الواقع وأطروحات الأحداث والمستجدات على القواعد الكلية المستنبطة من روح الشريعة الإسلامية والمؤيدة بنصوص الوحي الإلهي لاستنباط أحكامه.

ومما يؤكد هذا الانسجام البين بين الوحي والعقل، بناء التكليف على الاختيار، لتحقيق مفهوم الإرادة المنسجمة مع الوحي والعقل، والمنضبطة بهما، أضف إلى ذلك أن (مصدر العقل والوحي هو الله، فلا يمكن أن يقع التناقض والتعارض، وأن أي تعارض معناه ضعف في سند المنقول، أو عجز وخطأ في كيفية الاستدلال، وعند احتمال التعارض، فإن حكم الوحي المعصوم مقدم على حكم العقل المظنون)[2] وهكذا تحقق الإرادة المنسجمة مع الوحي والعقل.

فالدين لا يفرض قضاياه على المدعو فرضًا دون أن يقتنع بها عقلاً، ويشعر في ذاته بصدقها، فإذا قبلها عن طواعية وعن روية وإرادة وقصد، صار الاعتقاد بها فرضًا عليه، ونتيجة حتمية للإذعان لما يتفق وصيغ العقول السليمة، ولا يعني هذا أنه ينكر على الفطرة الإيمان بقضايا الدعوة ابتداء من ذاتها دون تفكير، فهذا يعبر عن سلامتها، فلا معنى للتكليف مع القسر أو الفرض، إذ التكليف مناطه الاختيار[3]، والاختيار يحسمه العقل بالتفكير الراشد، والتأمل الفاحص.

وإذا ما عُمِّيت المدركات عن العقول أو تُعُمد تعتيم قيمها أمام العقل، بتعطيل

---

(١) راجع في هذا: بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله (١/ ٣٥، ٣٥) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١) ١٩٩٤م.

(٢) مقدمة د/ عمر عبيد حسنة لكتاب العقل العربى وإعادة التشكيل (ص ١٧)، د/ عبد الرحمن الطريري، كتاب الأمة. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية قطر. .

(٣) راجع: الموافقات للإمام الشاطبي (٢/ ٤١٥) وما بعدها، تحقيق: د/ عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط (٣) ١٤٧١هـ/ ١٩٩٧م.

وسائل الإدراك والتشويش على الفطر السليمة، فحتمًا ستكون النتائج سلبية وغير معقولة، لذا تحتم أن تكون مدعاة للإنكار ومثارًا للرفض، لأنها لم تكن منسجمة مع العقل، ولا متفقة مع معطياته ومبادئه، مما يضفي عليه هالات من الغموض، ودواعي الخلط واللبس، يدفع بها إلى دائرة الإبهام، والإبهام مثار للشك، ومدعاة للارتياب، من ثم تحتم الحكم بعدم عقلانية المعارضة، وتحكيم الهوى في المنازعة.

تأصيل انسجام الأدلة مع العقل

من الأدلة القرآنية على هذا ما يلي:

١ـ وقول الله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[١].

٢ ـ وقوله ﷻ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[٢].

٣ ـ وقوله ﷻ ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[٣].

٤ـ وقوله تعالى ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾[٤].

٥ـ وقوله ﷻ ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[٥].

٦ـ وقوله تعالى ﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[٦].

٧ـ وقوله تعالى﴿ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[٧].

---

(١) سورة البقرة (٧٣).
(٢) سورة البقرة (٢٤٢).
(٣) سورة الزخرف (٣).
(٤) سورة العنكبوت (٤٣).
(٥) سورة ص (٢٩).
(٦) سورة طه (٥٤).
(٧) سورة طه (١٢٨).

٨ ـ وقوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

٩ ـ وقوله تعالى في أهل لوط ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

١٠ ـ وقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[3].

١١ ـ وقوله ﷻ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

١٢ ـ وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[5].

دلالات التأصيل:

إذا ما تأملنا هذه الآيات نجد ما يلي:

١ ـ أن الله تعالى نصب الأدلة في القرآن الكريم من الكون والنفس ليعقلها الإنسان، وللتعقل مدلوله إنه يعني تقليب الأدلة من سائر وجوهها، والتفكر فيها، وتدبر معانيها، والانتهاء بها عما لا ينبغي أن يتصف به العقل من فساد في التصور، والاعتبار بما فيها من عبر لتدفع إلى الإيمان الحق.

---

(١) سورة النحل (١٢).
(٢) سورة العنكبوت (٣٤، ٣٥).
(٣) سورة سبأ (٤٦).
(٤) سورة البقرة (٢١٩).
(٥) سورة الأنعام (٩٨).

إنها إذن عملية عقلية عميقة وواسعة لا تقف عند حد معين، ولا تنتهي عند مظهر بذاته، فالأدلة ينبغي، بل يجب ألا تمر على العقل كالبرق الخاطف، أو بما نطلق عليه "التمرير" دون تأمل أو تفحص أو تدبر أو نظر.

فالنظرة العَجْلي لا تفيد ولا تغني ولا تسمن من جوع، فهي ليست محل تدبر أو تأمل، كما أنها مظنة تفويت الحكمة على العقل.

٢ ـ من ثم نجد هذه الآيات الكريمة لا تتحدث عن التعقل فقط وإنما نجدها تتسع لتشمل مترادفات كثيرة هي في النهاية ثمرة جهد عقلي، وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقوله تعالى ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[1]. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[2].

٣. الآيات تخاطب العقول السليمة:

توجهت الآيات إلى العقول السليمة الفاحصة المتأملة العاملة المقدرة لملكاتها وطاقاتها الفاقهة ببواطن الأمور، الباصرة بعواقبها، المنتفعة بالتفكير والتعقل وعابت العقول التي أهملت تلك الطاقات والقدرات، وعمت وسائل إدراكها وأعاقتها عن التأمل والنظر والانتفاع بأوامر الوحي الإلهي وتوجيهاته، ولو أنها فعلت لأثمرت ثمرات ناضجة، ولكنها تقاعست عن ذلك أو تجاهلته أو استكبرت على تفهمه، وأنكرت قبول ما لا يميليه الهوي، ولفتت الآيات الكريمة أنظارهم إلى ضرورة النهوض واليقظة من هذا السبات، والإفاقة من تلك الغفلة .. ولكن قومًا لا يفقهون !!!

٤. فقه الدلالات في مقدور العقل:

بينت الآيات الكريمة أن فقه دلالات الأدلة وتأملها وتدبرها أمر ممكن عقلاً،

---

(١) سورة محمد (٢٤)، وسورة النساء (٨٢).

(٢) سورة يونس (٦٧)، وسورة الروم (٢٣).

لذا خاطبت العقل بذلك ولو لم يكن ممكنًا ما كلفته به لأن الله تعالي لا يكلف الإنسان بما لا يطيق.

وطالما أنه تعالي أمر العقل بفهمها، إذن فهي في مستوى الإدراك، وهى دلالات معقولة.

وطالما أنه تعالي أمر العقل بفهما ومعرفة وجوهها واستنباط شارات الدلالة والأحكام منها واستخلاص النتائج، والوقوف على العبر والعظات التي تدل عليها، إذن فهي دلالات معقولة، أي أنها في مستوى الإدراك.

الذين يعطلون وسائل الإدراك:

تشير الآيات الكريمة التالية إلى خطورة تعطيل وسائل الإدراك عن ممارسة دورها الإدراكى، لما له من آثار سيئة على مسيرة الاعتقاد والسلوك، وتنعي على أولئك الذين عطلوا وسائل إدراكهم، وتنزِّلهم بسبب ذلك إلى درجة البهيمية.

١ ـ قوله تعالي ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[1].

٢ ـ ومدلول قوله تعالي ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[2].

٣ ـ ومدلول قوله تعالي ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3].

٤ ـ ومدلول قوله تعالي ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الحج (٤٦).
(٢)سورة الأنفال (٢٢، ٢٣).
(٣) سورة يونس (٤٢).
(٤) سورة الروم (٥٢).

فهؤلاء وأولئك لم يُعملوا عقولهم في فهم قضايا الدين التي نصبت من أجلها الأدلة، لأنهم عطلو وسائل إدراكهم عن فهم الحق الظاهر والواضح وأبوا إلا الإنكار والمعارضة!!

لعله قد اتضح مما سبق طبيعة الأدلة من حيث كونها معقولة تتفق مع العقل، تنسجم مع مقدماته ومبادئه، كقاعدة من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، ولا يخفي ما لهذه القاعدة من أثر بالغ في قناعة الإنسان بالدين وإذ عانه له واعتقاده به.

المبحث الخامس

التأثير البالغ

لا مرية أن التأثير البالغ أحد معالم طبيعة الأدلة الدعوية في القرآن الكريم، وهذا التأثير لا يقتصر على العقل فقط باعتباره مخاطبًا بفهم الأدلة، ومعرفة بطبيعتها ومقتضياتها، وصياغة المقدمات واستخلاص النتائج، وإنما يمتد ليتعمق في جنبات النفس الإنسانية، ويسبر أغوارها، ويكشف عموضها، ويبرز حقيقتها، ويوضح إيجابياتها، ويومئ إلى سلبياتها، فالقلب يخشع لها، والنفس تهفو إليها، والآذان تصغي في خجل، وتخضع الجوارح في أنين لجلالها وهيمنتها، ويجد العقل فيها ما يشبعه ويغنيه، ويسعده ولا يشقيه، وإذ تخاطبه لا تعييه، وتقدر طاقاته، ومن الانحرافات تحميه، وتنأي به عن الشطط وباليقين تغذيه، وإلي الحق ترشده، ومن متاهات الباطل تنجيه.

وكيف لا وجلال الحق يظهر من ثناياها، والنور يتلألأ في طواياها، إنها كلام الله تعالي الذي يخضع له الكون ويدين، وتخشع له الجوارح وتلين، وتخر له الجبابرة ساجدين.

تأصيل التأثير البالغ للأدلة

والقرآن الكريم مترع بالأدلة التي توضح تأثير الأدلة القرآنية على الكون والإنسان ومنها ما يلي:

١ ـ قول الله تعالي﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر (٢١).

٢ ـ وقوله تعالي ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

٣ ـ وقوله تعالي ﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[2].

٤ ـ وقوله ﷻ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

٥ ـ وقوله تعالي ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[4].

٦ ـ وقوله تعالي ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة الأنفال (٢: ٤).
(٢) سورة الأعراف (١٩٦).
(٣) سورة المائدة (٨٣: ٨٥).
(٤) سورة طه (١:٨).
(٥) سورة يونس (٣٥).

٧ ـ وقوله تعالي ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[١].

٨ ـ وقوله تعالي ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[٢].

٩ ـ وقوله تعالي ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[٣].

١٠ـ وقوله تعالي ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[٤].

١١ـ وقوله تعالي﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾[٥].

وهذا مدلول قوله تعالي "إنه لقول فصل وما هو بالهزل"، وقوله تعالي "أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يَهِدِّي إلا أن يُهدَي" وقوله تعالي "قل هل يستوي الأعمي والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ..." وغير ذلك من الدلالات القرآنية الكريمة المذكورة وغير المذكورة.

---

(١) يونس (١٠٠).
(٢)سورة هود (٥).
(٣) سورة الزمر (٢٤).
(٤) سورة الرعد (١٦).
(٥) سورة الطارق (١٣، ١٤).

دلالات تمتع العقل وتؤنس القلب

دلالات التأصل

لا يخفى على من يتلو هذه الآيات إدراك شارات التأثير البالغ على النفس وعلى العقل .. فالعقل يجد فيها طلبته من متعة الإقناع، وصدق الدلالة، وقوة البرهان، وجزالة اللفظ، وروعة البيان، ودقة التأمل، وحسن الفكرة، والحجج القاطعة لجدل العقول، وقطع النزاع وفصل القول، وحسم أوجه الخلاف في المعقولات، إنها دلالات تتأبى علي القياس، ولا تستطيع أن تأتي بها العقول والحواس.

والقلب يستشعر تلك المعاني المقذوفة من الغيب المطلق التي جاءت لتستحوذ عليه، وتملك سويداءه، لا يجد أمامها مناصًا من الخشوع، ولا مفرًا من الإذعان والخضوع.

إنها تستثير كوامن مشاعره .. تحرك حالة جموده .. تهزه لتنفض عنه ران ما كسب .. تملأه بنور اليقين، وبرد الإيمان .. تكره إليه الكفر والفسوق والعصيان.

إنها دلالات تلين لها القلوب وتقشعر منها الجلود، لكن أي قلوب وأي جلود .. إنها قلوب الذين يخشون ربهم بالغيب، وجلودهم.. يستشعرون هيمنته فيخضعون له، ويركنون إليه .. يستنصرون به على أنفسهم الأمارة بالسوء، ونزعاتهم التي تدفعهم إلى المنكرات، وأهوائهم التي تدفعهم إلى ترك الخيرات .. يثقون بهذا النصر، ويعتزون به ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (١).

وهذا مدلول قوله تعالي "تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم بالغيب ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" وقوله ﷻ" ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق "وقوله تعالي" ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي إلا تذكرة لمن يخشى".

ولعلك تلحظ هذا التأثير البالغ في النفوس في شهادة أعداء القرآن أنفسهم

---

(١) سورة أل عمران (١٦٠).

الذين حاولوا أن يصفوه تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، فها هو المغيرة بن شعبة لا يتمالك نفسه أمام تلك المشاعر النفسية التى تهزه من داخله حينما سمع القرآن الكريم، وقد عبر عن ذلك حين سألته قريش عنه فقال: (ماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه أو قصيده مني ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شئ من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه يعلوا ولا يعلي عليه، وإنه ليحطم ما تحته)[1].

وتستطيع أن تقف على العديد من النماذج للتأثير النفسي للقرآن الكريم في كتب السنة والسير والتراجم[2].

إنها إذن دلالات تراعي ما في النفس الإنسانية من قوى وطاقات وقدرات وإمكانات.

ذلك أن (في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقِّب عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة والوجدانية)[3].

إنها دلالات كلام الله تعالي (فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا بلسان، وأن يمزج الحق بالجمال معًا يلتقيان ولا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٩٨) دار النصر للطباعة بالمدينة المنورة ١٩٦٩م، والسيرة النبوية لابن كثير، تحقيق: مصطفي عبد الواحد (١/ ٤٩٩) دار الرائد العربي، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، وإعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: أحمد صقر (ص ٥٣) وما بعدها، دار المعارف المصرية ١٩٧٧م.

(٢) منها على سبيل المثال: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٦٧) بيروت ١٩٨٥م، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧/ ١٧٦) مطبعة الحلبي ١٩٥٩م. .

(٣) النبأ العظيم: د/ محمد عبد الله دراز (ص ١٣، ١٦) دار الثقافة، الدوحة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، الرسالة اللدنية من العقود واللآلي للإمام الغزالي (ص ٧) المطبعة المحمودية التجارية بدون تاريخ.

يبغيان ... ألا ترى القرآن الكريم في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟

أو لا تراه في مَعْمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها)[1].

هذا التأثير شهد به أعداء الحق ومنكرو الرسالة والمعترضين على الوحي الإلهي.

لعله قد اتضح من خلال ما سبق طبيعة الأدلة الدعوية في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم من حيث قوة تأثيرها على العقل والقلب معًا.

(١) النبأ العظيم (ص ١٣، ١٦).

المبحث السادس

القطع والإلزام

القطع والإلزام أحد أبرز طبائع الأدلة الدعوية لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، أما قطعيتها فقد جاءت من بيانها وتساوقها مع الواقع، وانسجامها مع العقل، وانبثاقها عن الحكمة الإلهية.

وأما إلزامها للخصوم المنكرين والمعارضين والمجادلين والمشككين، فلأنهم لم يستطيعوا معارضتها، والإتيان بمثلها في وضوح معانيها، وقوة حجتها وسلامة براهينها، ونصوع دلالاتها، وصدق بيناتها، ودقة مفرداتها، وإحكام عباراتها، فإن لم يؤمنوا بها فقد ألزمتهم بضرورة الإيمان بصدق قضاياه، إلا أن يأتوا بمعارض، وقد تعذر هذا عليهم من قبل، ومن هنا تسقط أباطيلهم، وتدحض حججهم، وتتهافت آرؤهم وتصوراتهم.

ومن ثم لم يجد المنصفون منهم ـ إذا ما صفت قرائحهم، واعتدلت فطرهم، استقامت طويتهم، وحسنت نياتهم ـ مناصًا من التسليم لما ألزمتهم به، والإذعان لما أظهرته في عقولهم من بينات، والانصياع لما تضمنته من حقائق وآيات.

تأصيل دلالة القطع والإلزام:

لعل قطعية الأدلة الدعوية في القرآن الكريم وإلزامها واضح من خلال ما سبق سوقه من آياته تبين طبيعتها من حيث ربانيتها، وبيانها، وانسجامها مع العقل، واتفاقها مع الواقع، هذا فيما يتعلق بقواطع دلالة النصوص القرآنية على أن نصوصًا أخرى في القرآن الكريم تحمل دلالات ظنية (احتمالية) تحتمل أكثر من معنى، وهذا

لا يقدح في قطعية دلالات القرآن الكريم من حيث الورود والتلقي، ومن حيث ما ورد منها قطعي الدلالة، أو ظنيها.

وقطعي الدلالة وظنيها جاءا رحمة بالعقل، ليقطع بما زوده الوحي الإلهي به من معان لا مجال له في العمل بها، وليس له إلا التسليم ليوفر له الجهد والوقت ويدفعه إلى أن ينشط في عمله، وليفتح للعقل باب الاجتهاد في فهم نصوص القرآن الكريم فيما أورده من دلالات ظنية مراعاة لما رُكِّب فيه من طاقات وقدرات ذهنية، وتطلع إلى المعرفة والتأمل والبحث، وإضافة إلى إثراء الفكر بالتنوع والتعددية توسعة على الأمة ورفعًا للحرج والمشقة.

ومثال الدلالات الظنية قول الله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[1] فلفظ (القُرْء) في اللغة العربية مشترك بين معنيين، فهو يطلق لغة على الطهر، ويطلق لغة على الحيض، فيحتمل أن يراد به ثلاثة أطهار، ويحتمل أن يراد ثلاثة حيضات)[2].

ومن ذلك أيضًا لفظ (النِّد : للمثل والضد. و "الدين" الطاعة والجزاء. و "عسعس" إقبال الليل وإدباره)[3].

وكما لا تقدح الدلالات الظنية في قطعي الدلالة، فلا تقدح في إلزام الدلالة، إذ لا يعني احتمال ورود أكثر من معنى للنص القرآني الكريم في ألفاظه العامة أو المطلقة أو المشتركة ترك كل المعاني، وعدم العمل بها، وإسقاط حجيتها، فهذا عبث بآي القرآن الكريم، وقلة دراية، وخطأ منهج، فالآية ملزمة على أي من المعاني التي تحتملها.

وهذا كما قلنا من باب التوسعة ورفع الحرب والمشقة عن الأمة، فمن أخذ بمعنى

---

(١) سورة البقرة (٢٢٨).

(٢) علم أصول الفقه: الأستاذ عبد الوهاب خلاف (ص ٣٥) دار القلم، ط (٢) ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٣) التحبير في علم التفسير للإمام السيوطي. تحقيق: زهير عثمان نور ص (٣٨٧) مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية، ط (١) ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. .

الطهر في دلالة (القرء) فهو ملزم له، ومن أخذ بمعنى الحيض في دلالته فهو ملزم له، وهذا تأكيد لحجية الآية الكريمة وبيان لمدى روعة النص القرآني ومرونته ومراعاته لطبيعة اللغة العربية، وطبيعة العقل البشري.

(ومن شأن هذا أن تنمو الحياة العلمية باستمرار، وأن تكون في خدمة الحياة الإنسانية، ومواكبة لها في تطورها وتجدد أحداثها، فلا يكون العلم بمعزل عن الحياة، ولا يكون الدين غريبًا في دنيا الناس)[1].

ومن ثم تتأكد حجية آي القرآن الكريم (فكتاب الله تعالي دليل على كلامه، وكلامه صدق لا محالة، فيجب الإيمان والعمل به، قال الله تعالي ﴿ **وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ**﴾[2])[3].

تعقيب:

يتضح من خلال ما سبق بيانه أن قاعدة "بيان طبيعة الأدلة" واحدة من أبرز قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، لما لها من أهمية بالغة في الإقناع والاقتناع .. والتأثير والتأثر[4]، والخضوع والإذعان، إذ لا يجد المدعو بعد بيان طبيعتها إلا التسليم بها، واعتناق قضاياها، ترسيخ مفاهيمها، والإيمان بقيمها.

---

(١)منهج البحث في العلوم الإسلامية : د/ محمد الدسوقي (ص ١٥٧) مرجع سابق.

(٢) سورة الأنعام (١٥٥).

(٣) ميزان الأصول في نتاج العقول (المختصر) للإمام السمرقندي، تحقيق: محمد زكي عبد البر (ص ٧٩) مرجع سابق.

(٤) نقصد بالتأثر: تأثر المخاطبين بها لا أنها تأثرت بمؤثرات مغايرة أو خضعت لمفاهيم بشرية.. حاشا لله.